الفصل السابع

مؤرخو القرن الرابع

{ مسكويه }

يصل الادب العربي التاريخى مستواه الاعلى فى القرن الذى شاهد قيام البويهيين . ويشغلنا مؤلفان خاصة : مسكويه ومحسن التنوخى. وكان أولهما تلميذا لكتاب الطبرى الذى سمعه من ابن كامل الذى كان المصدر الرئيسى لترجمة حياة الطبرى التى ترجمت فى المحاضرة الأخيرة . وكان إلى عهده جَمّاعة يستفيد من المواد التى يمده بها الطبرى وثابت بن سنان خاصة . وحين يصل بتاريخه إلى عهده ، يخبرنا أنه حصل على معلوماته بصفة رئيسية من رجلين بارزين ، أهل لاعطائها، وهما المهلبى أبو محمد الحسن ، وزير معز الدولة ، وأبو الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة، وكان المؤرخ أمين مكتبة الوزير الأخير . وقد التحق هو نفسه بعد بخدمة عضد الدولة ، أعظم البويهيين ، وقد صار تناوله للحوادث بعد ذلك غامضا . وهناك ما يدعو إلى الظن بأنه استعمله ابن عضد الدولة وخلفه بهاء الدولة ، وتجعله بعض الاخبار على صلة وثيقة بابن عباد ، وزير فخر الدولة المشهور .

وليس من الواضح ما إذا كان مسكويه نفسه هو الذى انتقل من المجوسية إلى الإسلام ، أو أن الذى اتخذ تلك الخطوة أبوه ، الذى يدعوه عبد الله وهو اسم يطلق غالبا بمعنى « إنسان » على وجه التقريب . وكانت المهارة فى اللغة الفارسية صارت أمرا له أهميته حين اتخذها حاكم بغداد لغته الرسمية ، كما هى حال

البويهيين الاولين . وكان مسكويه من الكفاية فى معرفة البهلوية بحيث ترجم كتابا فى الاخلاق من تلك اللغة إلى العربية . وكان يجيد اللغة العربية أيضا ، ويخبرنا أن أشعاره حازت استحسان ابن العميد الناقد الكفء . كذلك تدعم الشواهد المعاصرة اشتهاره بالنظم .

وكل من يتقدم من دراسة الطبرى إلى دراسة مسكويه يجد أن مؤهلات الأخير لتأليف التاريخ أعظم جدا من مؤهلات سلفه . وكانت لديه ميزة كبيرة فى أخبار عصره من معرفته الشخصية بالرجال المشهورين : إذ كان قادرا على الحصول على المعلومات من مصادرها الاصلية . أضف إلى ذلك ، أنه كان عارفا بمناهج الإدارة والحروب فى عصره مما يسر له وصف الاحداث وصف عارف والحكم على الاعمال حكم واقف على دقائقها ، بحكم تقلده مركزا ، وإن لم يكن ساميا جدا ، فى بلاط البويهين . وبينما نجد الطبرى مقلا فيما يذكره عن اقتصاديات الخلافة : مصادر الخراج وطرقه وما أشبه ، نجد مسكويه يفيض ويدقق ويوضح فى تلك المسائل . وتفوق تعليقات مسكويه على الشئون العسكرية، مثل أسباب هزيمة المهلبى فى القضاء على الثورة فى المستنقعات ، أو أخطاء بختيار فى حربه مع عضد الدولة ، الوصف المطول الذى أورده الطبرى عن حرب الموفق فى المنطقة نفسها تفوقا كبيرا ، ولا نعرف شيئا من أسباب النجاح أو الفشل .

وينفرد مسكويه عن غيره بعدم تحفظه فى أحكامه ، إلى جانب تخلصه من معظم صور التحيز . وعلى الرغم من خدمته البويهيين ، لايخفى جرائمهم ، بل يقسو فى أحكامه عليهم أحيانا قسوة شديدة . فيصور رأس الاسرة ، عماد الدولة ، مغامرا لا مبادئ له . ويلوم معز الدولة ، سيد المهلبى ، أعنف لوم للخيانة التى استهل بها حياته : ويعترف لعضد الدولة ببعض الفضائل وكثير من المواهب ،

ويعـــزو نجاحه فى الحكم إلى تدريب ابن العميد إلى درجة كبيرة ، ولا يخفى أطماع عضد الدولة الزائدة ، وما كان مستطيعا أن يقول فى تلخيص حياته أكثر مما قاله فى اعتبار جميل ما فعل ، نأمل أن يغفر الله له . ومن الامور المهمة أن تقارن بين الموجز الحكيم لحياة عضد الدولة ، الذى ينتهى به تاريخه ، وبين المديح المطنب المبالغ الذى يخصصه الروذبارى ، الذى عاش فى ظل السلاجقة ، لهذا الشخص .

ومســـكويه قـــليل الميول الدينية جدا، بخلاف الطبرى ، الذى كان متكلما وفقيها . ومن الممكن أن تقرأ مجلداته دون أن تعرف – سوى فى فقرة واحدة – أن مؤلفه مسلم . ولعلنا نتوقع أن الحماس الدينى انتشر كالنار فى الهشيم مدة من هذا القرن : المدة عندما كان الامبراطور البيزنطى نقفور Nicephorus يعيد فتح المدن والاقالـــيم ، بســـبب ضعف الخلافة . وكان بطل الحروب مع المسيحيين فى ذلك الوقـــت سيف الدولة ، الذى احتل بغداد مرة ، عندما كان على رأس قوات أخيه ناصـــر الدولـــة : وقد خُلدت شجاعته فى قتال البيزنطيين فى شعر المتنبى . ويظهر ســـيف الدولـــة فى وصـــف مسكويه شخصا ذا مقدرة جد متوسطة ، دل فى عدة مواطن على أنه قائد غير كفء . ويعترف صراحة بأنه منى بهزائم خطيرة كثيرة فى حروبه مع البيزنطيين . وأعظم ما يسره من عضد الدولة سماحته المتسعة الآفاق أمام الجماعات المختلفة الاديان ، مما كان سببا فى انتشار الامن والرخاء .

ولعـــل مسكويه كان ميالا إلى إصدار الاحكام السيئة على الاشخاص الذين يـــدون حيـــاتهم . فروايته فى معظمها رواية للطمع ، والتآمر ، والخيانة ، مع سمات قليلة تكفر عن ذلك . بل يتهم الوزير الفاضل ، على بن عيسى ، بالطمع والرغبة فى احـــتكار الإدارة : ولا يمنعه إعجابه بالمهلبى من تدوينه إفراطه فى ابتزاز الاموال من أجل قصر معز الدولة . واضطر لتبرير عنوانه « تجـــارب الامم » أن يدون

الفضـــائح التى تعتبر من جهة أخرى مفسدة للأخلاق : الحيل التى خُلع أو عين بها الوزراء ، والطـــــــرق الوضيعة التى أغرى الرجال بواسطتها على خيانة سادتهم أو أقاربهم ، المجال الذى شغلته الاوهام والغباء فى الشئون المهمة من الدولة . ولعله يدافع عن إلحاحه على تدوين هذه الامور بالحاجة إلى تعليم رجال الدولة .

وبالـــرغم مـــن أن مسكويه لم يكن الكاتب الذى يرمى إلى البلاغة، كالعتبى وعماد الدين فيما بعد ، يكشف عن مقدرة كبيرة على تصوير الشخصيات ورواية المـــناظر المفزعة. فمن اليسير تمييز الاشخاص الكثيرين الذين برزوا إلى المقدمة فى الاعمال التى خضعت الخلافة بواسطتها لسيادة المغامرين الاجانب ، وفى الحقبة التى أعقبـــتها، وتلصق ملامحهم بالذاكرة . وقد نتخذ من أعمال البريديين ، مع كـــون أبى عـــبيد الله أبـــرز شخصـــية فى الثالوث ، مثالا من الحقبة الاولى . ويؤخذ على مسكويه أنه عزا إلى المقتدر الضعيف المتقلب إفلاس الخلافة وانقسام الامبراطورية: ولكـــن لا يتضح خطؤه حين ننظر إلى المثال القائم أمامه فيما قام به المعتضد القوى من أجل استعادة قوتهما كليهما بعد حقبة الفوضى الطويلة التى تلت وفاة المتوكل .

وقـــد أدخـــل فى روايته عمدا أو غير عامد مجموعة من المناظر المفزعة ، التى ليس من السهل نسيانها إذا ما قرئت مرة ، مثل محاكمة الحلاج ، ووفاة ابن الفرات وابنه محسن ، وإخلاص أبى الهيجاء الحمدانى للقاهر عندما نصب على عرش المقتدر أولا ، وحبس الوزير ابن مقلة ووفاته .

وإذا كـــان مسكويه طبيبا حقا ، فإنه سمح بقليل من آثار تلك المهنة بالظهور فى كـــتابه : ويـــبدو أنـــه لا يكشف عن أية معرفة خاصة بالدقائق الطبية إلا مرة واحـــدة. ويؤكد أبو حيان أنه أضاع وقته ومادته فى دراسة الكيمياء : ويبدو أن

كـــتابه ليس به أى أثر لذلك . وقد علق بعض الاهمية على الفلك شأن غيره من عـــلماء عصره : فيفسر نكبة جماعة من الامراء البارزين فى وقت متقارب من عام ٣٥٦ هـــ بـــتخمين فـــلكى : ولكن الفلك أقل بروزا جدا فى الجزء الذى حُقّق وتـــرجم مـــن تاريخه منه فى القطعة الباقية من تاريخ هلال ، الذى يورد خبرا غير عادى عن تنبؤ ناجح .

ويكشـــف مسكويه على العموم عن شكه فى غير الطبيعى ، وهو شك شبيه كـــل الشبه بشك أيامنا : وعندما يروى حالة حلم صادق رآه ركن الدولة وتحقق بعـــد تمامـــا ، اعتذر عن روايته ؛ وإنما برر روايته مثل هذا الخبر الثقة الكبيرة التى يتمـــتع بهـــا راويه ابن العميد ، وشهرته المستفيضة بالفلسفة . وواضح فى روايته محاكمـــة الحـــلاج الصوفى ووفاته أنه يعتبره مخادعا وضيعا : وبرغم ذلك يبدو أنه يخطـــىء الوزير حامد بن العباس لحثه على قتله ، وإن بدا أن حامدا إنما كان يدفعه إيمان صادق بأن أمثال تلك الدعاوى التى يطلقها الحجاج خطيرة على الامبراطورية.

والطـــبقة الـــتى انـــتمى إليها مسكويه ، وكان عطوفا على مصالحها بصفة رئيســـية ، هى طبقة الكتاب ، الذين كان يرى أن لهم الحق فى تولى الوزارة ، لأن المؤهـــلات الحقة لذلك المنصب لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال المران الذى تحتاج إليه مهنتهم . وليسوا عارفين بالأسلوب الملائم لتدوين أوراق الدولة حسب، بـــل هـــم عـــارفون بالتفاصـــيل الجغرافية والاحصائية المحتاج إليها للتنظيم المالى للامبراطورية. ولذلك يشعر بالألم المر حين يَرْقى الوزارة أبو طاهر بن بقية ، الذى بـــدأ حياته موظفا فى المطابخ الملكية، ولكنه رقى إلى أسمى مركز بكفاءته . وبرغم ذلـــك تصور روايته ابن بقية هذا ، عند مقابلته ببختيار ، رجل شجاعة ، ونجدة ، وحزم .

ويذكر مسكويه أحيانا رواته ، وهم عادة من قد نسميهم الموظفين الدائمين فى الدواوين ، أو على أية حال الاشخاص الذين كانوا فى خدمة الوزراء فاستطاعوا الوقوف على أحاديث البلاط ، حيث تذاع عدة أسرار ، وإن لم تكن دائما موثوقة. ويؤكد أبو شجاع أنه نقل تاريخ البويهيين ، الذى ألفه أبو إسحاق إبراهيم الكاتب، وسماه « التاجى » وفقا للقب عضد الدولة « تاج الملة » ، نقلا حرفيا على وجه التقريب . فإن كان الأمر كذلك . فالجدير بالملاحظة أن مسكويه لم يعترف فى أى مكان بهذا الجميل ، كما يفعل حيال مؤرخ آخر من الفرقة نفسها ، وهو ثابت بن سنان . وليست قطع التاجى المحفوظة لدى العتبى والثعالبى بكافية لتمكيننا من معرفة ما إذا كان توكيد أبى شجاع قريبا من الحقائق أولا . ويتوقع المرء أن يكون أسلوب إبراهيم الصابى أكثر صناعة أدبية من أسلوب مسكويه ، البسيط غاية البساطة فى جميع أنحاء الكتاب .

وإذا كان الخبر القائل أن إبراهيم وصف تاريخه بأنه مجموعة من الأباطيل صادقا ، ولذلك كاد يفتك به عضد الدولة ، فإن ذلك يلقى ظلالا خطيرة من الشك على مادونه مسكويه عن مبتدأ أمر البويهيين . وقلما تثير تلك الرواية الشك ، لأنها بعيدة عن محاولة استرضاء الاسرة ، التى لا تقول شيئا عن رأسها بويه. ويورد المؤلفون المتأخرون الحلم الحتمى الذى بشر هذا الرجل بواسطته بالشهرة التى سيتمتع بها أبناؤه . ويصور عماد الدولة ، المؤسس الحقيقى لمجد الاسرة ، بارع العمل والتفكير ، ولكن مغامرا غير مراع للحقوق . ويوحى الخبر القائل بأنه هزم جيشا للخلافة مؤلفا من ١٠,٠٠٠ رجل ، على حين لم يكن معه إلا ٣٠٠ رجل بالشك فى الارقام ، ولكن رواية مسكويه تفسر السهولة التى استطاع بها عماد الدولة أن يجمع جيشا حوله : فلا شىء ينجح كالنجاح . ويبدو

أن المـرجح أن أخبار الحظ غير العادى الذى يسر لعماد الدولة جمع ثروة كاذبة : فإن ادعاء اكتشاف ثروات مخبوءة أمر تظاهر به كثيرا الملوك الراغبون فى التهرب مـن تشويه السمعة المرتبط بجمع المال عن طريق ابتزازه . ويقال إن عضد الدولة نفسه راجع رواية إبراهيم قبل نشرها ، ونحن لا نعرف إلى أى مدى كان يرغب فى الاشادة بأقاربه ، وإن كنا نعرفه حاكما قويا طموعا مغفلا للحقوق . ويلقى أبوه ركن الدولة من مسكويه أجمل ما قال : ولكن يبدو من الرواية أن العلاقة بين عضد الدولة وأبيه كانت جافة إلى درجة الانقطاع ، بسبب إخلاص ركن الدولة لذكرى أخيـه معز الدولة ، الذى أراد عضد الدولة أن يعزل ابنه بختيار عن عرشه ، كما فعـل فـيما بعد . وواضح أن الحيلة التى نظمت بها مقابلة بين الأب والابن دون الاساءة إلى كرامة أيهما رواها مسكويه عن أحد أفراد بنى العميـد .

{ ثابت بن سنان الصابى }

ولاشـك أن مرجعه الرئيسى فى الجزء السابق على ما يدعى فيه الرواية عن الـوزراء الذين خدمهم هو تاريخ ثابت بن سنـان ، المتوفى عام ٣٦٥ هـ ، والذى امتد تاريخه من مبدأ عهد المقتدر إلى سنة ٣٦١ هـ . ويذكره مسكويه بين حين وآخر لتجاربه الشخصية : فقد اطلع على كثير من أسرار الدولة لكونه طبيب الـبلاط . وقد سأله بجكم المستولى على السلطة فى بغداد النصيحة فى كيفية ضبط الـنفس: فنصح هذا الشخص العجيب بتأخير العقاب ليفتر غضبه . وحضر الوزير ابن مقلة حين بترت يده . ويورد مسكويه منظرا مفزعا لذلك . وكان هذا المؤلف من الصابئة ، الذين يحسن بنا أن نعرف المزيد عنهم : وقد أنتجوا عدة مشهورين : عـلماء وأطباء وكتابا . وكان هلال ، الذى أكمل تاريخ ثابت من حيث أنهاه ،

والـــذى توجد قطعة من تاريخه ، أول من اعتنق الإسلام من عائلته . وهذا الطبيب فى البلاط راوية بارع لشئون عصره ، مثل أسرة بختيشوع المشهورة : وكان الرواة الآخـــرون الذيـــن اســـتطاع أن يرجع إليهم ورجع إليهم مسكويه كتابا أو رجالا اتصلوا بمن كانوا وراء المناظر ، وعلى علم بالدوافع الخفية، وغير كارهين لكشف اللثـــــــــام عنهم .

{ محمد بن يحيى الصولى }

ورجع مسكويه إلى مرجع آخر هو كتاب لايزال موجودا، كتاب « الورقة » لمحمـــد بن يحيى الصولى ، الذى كان كالبلاذرى رفيق عدة خلفاء ونديمهم ، وتوفى عـــام ٣٣٦ هـــ ، وكان لاعبا مشهورا بالشطرنج ، كان لعبه فى قول أحد هؤلاء الخـــلفاء أحسن من أى منظر يمكن تخيله . وبلغت براعته فى تلك اللعبة من العظمة بحيث قيل إنه هو الذى وضعها ! ولسوء الحظ أن ترجمة ياقوت له مخلة جـــــدا ، ولكنه أتيحت له فرص قيمة لفهم أسرار الإدارة ، والمؤامرات التى كانت تحـــــاك دائما لخلع الوزراء والولاة ، بحكم صلته بالخلفاء . وضمت آثاره الادبية بالاضافة إلى مذكراته المسماة الورقة قوائم بالشعراء والمشهورين ، وتاريخا للوزراء يذكر بين حين وآخر ، وتاريخا للقرامطة ، لعله كانت له قيمته، إذ أن جميع الاخبار التى لدينا عن هذه الفرقة العجيبة والمرعبة من العداء لهم بحيث أن معرفتنا بهم مخلة وتحتاج إلى مـــا يكملها . بل لم يستطع الطبرى ، الذى شاهد مبدأ الحركة ، أن يعطينا أكثر من تخميـــنات بصدد أصل الاسم . ومعنى الفعل فى اللغة العربية اليهودية الشائعة فى ذلـــك الوقـــت « ثـــار » ، ولكـــن مـــن الواضح أن هذا الفعل مشتق من اسم الفرقـــــــة .

{ محسن بن على التنوخى }

ولم يكن محسن بن على التنوخى فارسى الأصل مثل مسكويه ، وإنما كان من قبيلة عربية خالصة ، هى تنوخ ، التى أنجبت فى القرن التالى أبا العلاء المعرى المشهور . ويذكر جده فى خبر مروى فى النشوار : احتل البيزنطيون ، فى اثناء فتنة الزنج ، انطاكية ، التى كانت تقيم فيها العائلة ، ثم استعادها المعتضد ، الذى أقسم أن يهدم سورها . فذعر أهل البلدة لهذا العمل ، وأرسلوا وفدا ، برئاسة التنوخى، ليلتمس من الخليفة ألا ينفذ هذا العمل الخطير . ولكن الخليفة، الذى أقسم على هدمه ، لم يجد مخلصا : وكان المخلص ، الذى اقترحه التنوخى وقبله الخليفة ، أن تعمل الفعلة فى هدمه يوما واحدا فقط ، وأن يأذن الخليفة لجميع الأقوياء من رجال المدينة فى الاشتغال بإصلاحه بعد ذلك [1] .

وغادر ابن هذا الرجل ، واسمه على ، ومولده فى سنة ٢٧٨هـ ، انطاكية فى شبابه ، إلى بغداد ، ودرس الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وولى القضاء فى عدة مناطق من العراق : وكاد يصير قاضى القضاة فى بغداد نفسها . وقد استخدمه المغامرون الذين استولوا على السلطة فى ذلك العصر فى السفارات أو المناسبات الاخرى التى يحتاج فيها إلى من يوثق به ، شأن غيره من كبار الموظفين .

---

(١) كذا روى المؤلف هذا الخبر ، ولكن التنوخى ذكر أن سبب قسم الخليفة كان خروج وصيف الخادم فى طرسوس ، واحتماءه بسورها ، كما احتمى بهذه الاسوار غيره من الخارجين على الخلافة . (نشوار المحاضرة ٢٢٧) – المترجم .

ويشـــاد بـــبراعته فى مجموعة متنوعة من الاوصاف، أهمها المقدرة الشعرية ؛ وعندما فقد مركزه فى بغداد ، لجأ إلى سيف الدولة ، ومدحه بالأشعار : فسُر سيف الدولـــة ، الـــذى لا يـــنازع فى حسن تذوقه الشعر ، من إطرائه إلى درجة جعلته يســـتخدم نفـــوذه فى إرجـــــاعه إلى منصبه . وكان حفيده على بن محسن رجلا مشهورا أيضا ، فهو أحد مؤدبى الخطيب البغدادى . ولكن محسن بن على ، الذى عـــاش فى المدة بين عامى ٣٢٩ - ٣٨٤ هـــ ، ذو شهرة أخلد من شهرتهما : وقد ولـــد فى البصرة وتوفى فى بغداد. وكان مدة قاضيا نائبا لابن أبى الشوارب قاضى القضاة ، ثم ولى القضاء ، فى مدن مختلفة ، مجتمعة ومنفصلة ، من الجزيرة وفارس . ويديـــن بترقيه للوزير المهلبى ، الذى مثل مع التنوخى منظرا خاصا من مناظر الود والالفة ، ليؤثر فى قاضى القضاة ، الذى تأثر فى غباء « وكاد يحملنى على رأسه ». وأحـــبه عضد الدولة ، وواضح أنه أعجب بشعره ، وطلب إليه أن ينشده إياه فى مجالســـه . وفقد عطف الامير البويهى عندما كان فى همذان ، وعندما زار الصاحب ابـــن عباد ، وزير أخيه ، الأمير ، فأراد أن يقبض على الصاحب ، واتهم التنوخى بســـماع هـــذا الســـر وإذاعته ، فخابت الخطة . ويروى الخبر ، الذى ينكر فيه التـــنوخى التهمة ، ويحاول أن ينتقم من متهميه ، فى شىء من الطول الممل ، ولكنه يـــروى بطريقة تلقى ضوءا أليما على أخلاق العصر . واعترف التنوخى بأنه أخذ بعض الهدايا اللطيفة من الصاحب ، ولكنه عفا عنه ، وبعثه بعد فترة إلى الخليفة فى أمر من الصعوبة والكراهة بحيث تظاهر التنوخى بالمرض ليتخلص منه . واكتشف عضد الدولة بالحيلة أن المرض زائف، ومنع القاضى من مغادرة منزله : فاضطر إلى البقاء فيه إلى حين وفاة الامير .

وتوجد ثلاثة كتب لهذا الرجل كاملة أو أجزاء منها . أحدها مجموعة من الأقوال المعزوة إلى الرسل وغيرهم من الاشخاص المهمين . والآخر ، ولعله أشهرها، « الفرج بعد الشدة » ، الذى قلنا عنه شيئا من قبل . ويسمى الاخير ، الذى استغرق عشرين عاما فى تأليفه ، من ٣٦٠ - ٣٨٠ هـ ، « جامع التواريخ » أو « نشوار المحاضرة » ، وهو فى أحد عشر مجلدا ، نشر أولها مع ترجمة ، ويوشك الثامن أن ينشر . ولا تدرى الآن إذا ما كانت المجلدات التسع الباقية موجودة فى أى مكان . وقد رجع إلى الكتاب كثير من الكتاب (صحف كثير منهم الكلمة الأولى من العنوان) إذ إنه ذخيرة من الأخبار عن الامصار المختلفة أشد الاختلاف .

ويذكر المؤلف ، الذى وضع مقدمة لكل جزء ، قائمة لقريب من مئة موضوع مختلفة عالجها : ويبدو فى المجلد الاول أنه أوفى بوعده فيها جميعا . واستطاع أن يحصل على قدر كبير من المعلومات الغريبة ، التى تؤلف تكملة مستحبة لتاريخ الطبرى الهزيل ، بحكم قضائه كل حياته فى مجتمعات مشاهير العراق ، أو فارس ، واتصاله خاصة بالرجل الذين جمعوا كل ما أمكنهم اكتشافه عن التاريخ من أسلافهم المباشرين ومعاصريهم ، اتصالا وثيقا . ووصل كثير من معلوماته إلى كتاب الوزراء لهلال الذى يضم نفس الروايات ، ذاكرا أحيانا اسم هذا التنوخى ، وأحيانا أسماء الرواة الذين أخذ عنهم التنوخى . ولعله فى الاحوال الاخيرة أخذ المادة نفسها من مستمع آخر . ولكن المناسبات التى يتفق فيها مع مسكويه فى إيراد مواده أندر ، وإن لم يمكن القطع بشىء بصدد العلاقة بينهما ، مع عدم حصولنا على الكتاب كله .

ورمـــى التـــنوخى بصفة رئيـــسية إلى ألا يضمن كتابه شيئا موجودا فى كتاب آخـــر : ولكـــنه لم يتشدد كل التشدد فى التزام هذه القاعدة . إذ يوجد كثير من أخـــباره فى المجلدين كليهما وفى كتابه الأول « الفرج بعد الشدة » . ومهما يكن القـــول ، فالمـــرجح أن أغلب المادة التى ضمنها فى « نشواره » منقولة شفاها إلى ذلـــك العصـــر ، ثم رجـــع إليها المؤرخون والاخباريون لاستخدامها فى أغراضهم الخاصـــة . ويورد معجم الادباء لياقوت كثيرا من القصص من المجلدات الموجودة والمفقودة . رآها فى أثناء جمع مادة أخباره . وتعنى أبو على – تلك الكنية العامة التى يتغير معناها بتغير الموضوع المتناول – فى معجم ياقوت عادة التنوخى .

والاخـــبار الـــتى تشـــير إلى وزراء القرن الرابع : ابن الفرات ، وعلى بن عيســـى، وابـــن مقلة ، وغيرهم ، موجودة فى كتاب الوزراء لهلال أيضا : ولسوء الحظ لم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا قطعة مثل كتاب الجهشيارى ، وعلى الرغم مـــن إفاضـــة مســـكويه فى تناوله الوزراء البويهيين ، فر منه كثير من الأخبـــار المنتمية إلى هذه الحقبة ، والواردة عن رواة ثقات ، أو ظنها غير جديرة بالتدوين فى كـــتابه . وهى ذات أهمية باقية لمـــا تلقيه من ضوء على عادات العصر أو أخلاق الزعماء . ولكن الحقبة التى تحوز مجموعات التنوخى القيمة العظمى بالنسبة لها هى القرن الهجرى الثالث ـــ إذ صارت التواريخ مخلة إخلالا عجيبا بعد وفاة المأمون . فتصـــور العلاقات بين الوزراء ، والمؤامرات التى حاكوها للاستيلاء على المراكز ، والدرجـــات المختـــلفة التى كشفوا عنها فى شكران الجميل أو نكرانه ، وخرافاتهم وأوهـــامهم ، فى وضوح كبير ، وتكتسى شخصيات كشخصية سعيد ، وعبيد الله ابن القاسم ، وإسماعيل بن بلبل ، والعباس بن محمد أخى ابن الفرات ، التى كانت ظليلة معتمة فى التواريخ ، تكتسى باللحم والدم تدريجا .

وهاك إحدى قصص التنوخي الهندية. وهو يضمنها فى « الفرج بعد الشدة» وفى « نشوار المحاضرة » أيضا .

حدثنا أبو الحسن محمد بن عمر بن شجاع المتكلم البغدادى الملقب بجنيد، قال : حدثنا الفضل بن هامان السيرافى – وكان مشهورا بسلوك أقاصى بلاد البحر – قال : قال لى رجل من بعض بياسرة بلاد الهند – والبيسر هو المولود على ملة الإسلام هناك – قال : كان فى إحدى بلادهم ملك حسن السيرة . وكان لا يأخذ ولا يعطى بمواجهة ، وإنما كان يقلب يده وراء ظهره ، فيأخذ ويعطى بها ، إعظاما منهم للملك ، وسنة لهم هناك ولأولادهم . وأنه توفى ، فوثب رجل من غير أهل المملكة فاحتوى على ملكه . وهرب ابن له كان يصلح للملك ، خوفا على نفسه من المتغلب . ورسوم ملوك الهند أن الملك إذا قام عن مجلسه لأى حاجة عرضت له، كان عليه صدرة قد جمع فيها كل نفيس وفاخر من اليواقيت والجواهر مضروب بالابريسم فى الصدرة ، ويكون فيها من الجوهر ما لو أراد أن يقيم به ملكه لاقامه . قال : ويقولون : ليس بملك من إذا قام عن مجلسه وليست معه ، حتى إذا حدثت عليه حادثة وهرب بها ، أمكنه إقامة ملك منها . فلما حدث على الملك تلك الحادثة ، أخذ ابنه صدرته وهرب بها .

فحكى عن نفسه أنه مشى ثلاثة أيام ، قال : ولم أطعم طعاما ، ولم يكن معى فضة ولا ذهب فأبتاع به مأكولا ، ولم أقدر على إظهار ما معى، وأنفت أن أستطعم. قال : فجلست على قارعة الطريق ، فإذا رجل هندى مقبل على كتفه كارة ، فحطها وجلس حذائى . فقلت : أين تريد ؟ قال : الحرام الفلانى . ومعنى الحرام الرستاق . فقلت : وأنا أيضا أريد هذا الحرام . قال : فنصطحب ؟ قلت : نعم . فصحبته طمعا فى أن يعرض علىّ شيئا من مأكوله . قال : فحل الكارة

وأكـــل ، وأنا أراه ، ولم يعرض علىّ شيئا من مأكوله ، ولم تقوَ نفسى على أن تبدأه بالسؤال . فلما فرغ قام يمشى ، فمشيت معه وبت معه ، طمعا فى أن تحمله المزاملة عـــلى العـــرض عـــلىّ . فعمل بالليل كما عمل بالنهار . قال : وأصبحنا فى غد فمشينا، فعاملنى بمثل ذلك أربعة أيام . قال : فصار لى سبعة أيام لم أذق فيها شيئا ، فأصـــبحت فى الثامن ضعيفا مهووسا لا قدرة لى على المشى . فعدلت عن الطريق ، وفـــارقت الرجل . فرأيت قوما يبنون ، وقيـــّما عليهم . فقلت للقيم : استعملنى مثل هؤلاء بأجرة يوم . ففعل ، فابتعت بها ما أكلته ، وقمت أناولهم الطين . فكنت لعادة الملك أقلب يدى إلى ظهرى وأعطيهم الطين ، فلما أتذكر أن ذلك خطأ ينبه عـــلى سفك دمى ، أبادر بتلافى ذلك ، فأرد يدى بسرعة من قبل أن يفطنوا لى . قـــال : فلمحـــتنى امرأة قائمة ، فأخبرت سيدتها خبرى ، وكانت صاحبة البناء ، وقالت : لا بد أن يكون هذا من أولاد الملوك. قال : فتقدمت إلى القيم بحبسى عن المضـــى مـــع الصناع ، فاحتبسنى وانصرف الصناع . فجاءتنى بالدهن والعروق لأغتســـل بهمـــا ؛ وهـــذه تقدمة إكرامهم ، وسنة لعظمائهم ، فتغسلت بذلك . وجـــاءونى بـــالارز والسمك ، فطعمت . فعرضت المرأة علىّ نفسها فى التزويج ، فأجبت وعقدت ، ودخلت بها من ليلتى .

وأقمـــت معهـــا أربع سنين ، أدبر حالها وحالى ، وكانت لها نعمة . فأنا يوما جالس على باب دارها ، إذا برجل من بلدى ، فاستدعيته ، فجاء . فقلت له : من أين أنت ؟ قال : من بلد كذا وكذا . فذكر بلدى . فقلت : ما تصنع ههنا ؟ قال: كـــان فيـــنا ملك حسن السيرة فمات ، فوثب على ملكه رجل ليس من أهل بيت المـــلك ، وكـــان للملك الاول ابن يصلح للملك فخاف على نفسه فهرب ، وإن المتغـــلب أســـاء عشرة الرعية ، فوثبنا عليه فقتلناه ، وانبثينا فى البلدان نطلب ابن

ذلـــك المـــتوفى فنجلسه مكان أبيه ، فما عرفنا له خبرا . قال : فقلت : أتعرفنى ؟ قـــال: لا . قلت : أنا طلبتكم . قال : وأعطيته العلامات . فعلم صحة ما قلته له ، فكفـــر لى . فقلت : اكتم أمرنا إلى أن ندخل الناحية . قال : أفعل . ففعل . قال : فدخـــلت إلى المرأة ، وأعلمتها بالخبر ، وحدثتها بأمرى كله ، وأعطيتها الصدرة، وقلت : هذه قيمتها كذا وكذا ، ومن حالها كذا وكذا ، وأنا ماض مع الرجل، فإن كان ما ذكر صحيحا فالعلامة أن يجيئك رسولى ويذكر لك الصدرة ، وإن كانت مكيدة كانت الصدرة لك .

قـــال : ومضـــى الـــرجل ، وكـــان الامر صحيحا . فلما قرب من البلد ، استقبلوه بالتكفير ، وأجلسوه فى الملك . فأنفذ إلى زوجته من حملها ، فجاءت إليه. فحـــين اجـــتمع شمله واستقام أمره ، أمر فبُنيت له دار ضيافة عظيمة ، وأمر أن لا يجوز فى عمله مجتاز إلا حُمل إليها ، فيضاف فيها ثلاثة أيام ، ويزود لثلاثة أيـــــام أخـــــــر . فكان يفعل ذلك ، وهو يراعى الرجل الذى صحبه فى سفره ، ويقدر أن يقع فى يديه .

فـــلما كان بعد حول استعرض الناس . قال : وكان يستعرضهم فى كل يوم فـــلا يرى الرجل ، فيصرفهم . فلما كان فى ذلك اليوم، رأى الرجل فيهم . فحين وقعـــت عـــليه عيـــناه ، أعطاه ورقة تابول ، وهذه علامة غاية الاكرام ونهاية رتبة الاعظـــام ، إذا فعله الملك برعيته . قال : فحين فعل الملك ذلك بالرجل ، كفر له وقبل الارض . فأمره بتغيير حاله ، وإحسان ضيافته ، ففعل . ثم استدعاه ، فقال : أتعرفنى ؟ قال : وكيف لا أعرف الملك ، وهو من عظم شأنه وعلو سلطانه بحيث هـــو ؟ قـــال : لم أرد هـــذا ، أتعرفنى قبل هذا الحال ؟ قال : لا . فذاكره الملك بالحديث والقصة فى منعه إياه الطعام فى السفر . قال : فبهت الرجل . فقال : ردوه

إلى الدار. فردوه ، فزاد فى إكرامه ، وحضر الطعام فأطعم . فلما أراد النوم ، قال الملك لزوجته : امضى فغمزيه حتى ينام . قال : فجاءت المرأة ، فلم تزل تغمزه إلى أن نام ، ثم رجعت إلى الملك ، فقالت : قد نام . قال : ليس هذا نوما ، حركوه ! فحركوه فإذا هو ميت . قال : وقع فى يدى ، فتناهيت فى إكرامه ، والهند لهم أكباد عظام ، وأوهام ظريفة ، فأدخلت عليه حسرة عظيمة ، إذ لم يحسن إلىّ فقتلته، وقد كنت أتوقع موته قبل هذا ، بما توهمه واستشعره من العلة فى نفسه لفرط الحسرة .